الكتاب الخامس

الشروع بحصار انطاكية

obeikandl.com

(٢٠ تشرين أول إلى كانون أول)

بدء الحصار ـ الاستيلاء على حصن حارم ـ المجاعة في المعسكر الصليبي

١٢ ـ لدى اقترابنا من جسر الحديد ، صادف رجال طلائعنا ـ الذين اعتادوا على التقدم أمامنا ـ في طريقهم فئة كبيرة من التركمان متوجهين بسرعة نحو انطاكية لنجدتها ، فما كان منهم إلا ان انقضوا عليهم ، وكلهم قلب واحد ويد ضاربة واحدة ، فهزموا أولئك التركمان ، وكتبت لهم الغلبة عليهم ، بعدما قذفوا الرعب في قلوب أولئك البرابرة ، الذين فروا مخلفين وراءهم عددا كبيرا من القتلى (٤٢) ، ولما كان لواء النصر معقودا على مفرق رجالنا ، فقد اصابوا بفضل رعاية الرب لهم ـ غنائم كبيرة من الخيول والجمال والبغال والحمير المحملين بالأطعمة والأشربة .

ووصل رجالنا اخيرا إلى شاطىء النهر (٤٣) ، وعسكروا على مقربة منه ، وبادر على الفور بوهيموند الحكيم على رأس أربعة الاف فارس ، وعسكر أمام واحد من أبواب المدينة ، حتى يحول بين الدخول إليها أو الخروج منها سرا تحت جنح الظلام ، ووصل بقية الجيش إلى أنطاكية في اليوم التالي ، وهو ظهر اليوم الرابع من يوم الراحة الذي هو الثاني عشر قبل أول تشرين الثاني (٤٤) وتمكنا من حصار ثلاثة أبواب من أبواب المدينة حصارا حقيقيا ، ولم يتيسر لنا ضرب الحصار من الناحية المتبقية ، إذ كان يحيط بها جبل عالي القمة لم يترك لنا سوى عقبة بالغة الضيق .

واستولى الجزع على أعدائنا من التركمان الذين كانوا داخل المدينة إلى حد أنهم بقوا خمسة عشر يوما تستبد بهم الدهشة ،

لايستطيعون تحريك ساكن ، ولم يجرؤ واحد منهم على محاربة واحد من جماعتنا ، هذا وماكدنا نقيم معسكراتنا حول انطاكية حتى لاحظنا أن هذه الناحية وافرة الخيرات فيها أعناب ناضجة بكميات كبيرة ، ومخازن مملوءة بالقمح ، وأشجار مثقلة بالفواكه ، كما عثرنا على مختلف أنواع الأطعمة الصالحة للأكل .

وداب الأرمن والسريان الذين كانوا داخل انطاكية على مغادرتها كل يوم متظاهرين بالهرب ، وعليه وجدوا بين صفوفنا كل يوم ، بينما بقيت عيالاتهم داخل المدينة ، وجرت عادتهم على تقصي أخبار احوالنا ومواقفنا ، ثم كانوا يحملون هذه الأخبار إلى المحاصرين الذين أغلقت عليهم منافذ المدينة ومسالكها ، ولما عرف التركمان تمام المعرفة بجميع مايتعلق بنا ، ووقفوا على مجمل أخبارنا شرعوا يخرجون من المدينة شرذمة بعد شرذمة ، ومضوا يحدقون بحجاجنا ، واخذوا يتربصون بنا من كل ناحية ، وبتنا نجدهم يقيمون الكمائن لنا في جميع الجهات ، فكنا أونة نراهم في طريقنا إلى البحر ، وأونة أخرى في طريقنا إلى الجبل .

وعلى مقربة من هذه المنطقة قام حصن اسمه حصن حارم ، وقد كمن فيه عدد كبير من اكثر التركمان شجاعة ، وهم من الذين اقضوا مضاجع رجالنا ، ولما عرف قادتنا هذا ، اشتد جزعهم ، وارسلوا عددا كبيرا من الفرسان ليقوموا بأعمال الاستطلاع بغية كشف مواقع التركمان ، حتى إذا تهيأ لهم ذلك ، كبسوهم على رأس قواتهم ، وبالفعل تقهقر رجالنا أمامهم ، واستدرجوهم حتى البقع التي كمن فيها بوهيموند وجنده ، ولقي إثنان من رجالنا حتفهما أثناء هذا الاستدراج ، وما إن عرف بوهموند خبر اقترابهم حتى بادر فانقض على رأس رجاله ، فكان حقا بطل المسيح الشجاع ، وشدد البرابرة هجومهم على رجالنا الذين كانوا أدنى منهم عددا ، واحتدم القتال بين الطرفين ، وهلك العديد من أعدائنا ، ووقع غيرهم في الأسر ثم سيقوا إلى حيث ضربت أعناقهم أمام أبواب المدينة ، مبالغة في زيادة الام الذين بها في الداخل ونكالا بهم .

وغادر الآخرون المدينة ، وتسلقوا شرفات السور ، وأخذوا يرموننا بنشابهم الذي تساقط تساقط المطر على معسكر بوهموند ، و أصيبت لنا امرأة برمية قوس أودت بها .

١٣ ــ واجتمع زعماؤنا ، وعقدوا مجلسا للتشاور فيما بينهم ، فقالوا : لنقم ببناء قلعة على قمة جبل مرقب كيما نأمن على أنفسنا مخاطر التركمان ، وتطمئن قلوبنا فلا نعود نخشاهم ، وما أن انجز بناء القلعة حتى أخذ زعماؤنا في التناوب بالدفاع عنها واحدا تلو الآخر .

وحدث قبل حلول عيد الميلاد أن شح القمح ، وتناقصت الأقوات ، وغدونا لانكاد نجرؤ على مغادرة معسكرنا ، ولم نعد نجد في مناطق المسيحيين شيئا يمكن أن نسد به جوعنا ، زد على هذا أنه لم يتجرأ واحد منا على الدخول إلى أراضي المسلمين ما لم يكن في الجمع الكبير والحشد العظيم ، وعند ذلك عقد زعماؤنا اجتماعا تشاوروا فيه حول إيجاد السبل المجدية لضبط حشد كبير مثل شعبهم ، فاتفقوا بعد المداولات على أن ينهض فريق من رجالنا بالحال ، ليعمل مافي وسعه ، ويبذل غاية الجهد لجمع الأقوات ، ولضمان حماية الجيش من بيات أوغارة من الخلف ، واتفقوا على أن يظل الباقون داخل المعسكر بغية حمايته ، وقال بوهموند مخاطبا المجتمعون : « أيها السادة ، أيها الفرسان العقلاء دعوني أمضي مع كونت فلاندرز إذا شئتم ورأيتم ذلك مفيدا» .

وبعدما احتفلوا احتفالا بهيا بعيد الميلاد ، خرجوا يوم الاثنين ــ تالي يوم الراحة ــ في أكثر من عشرين ألف فارس وراجل ، ودخلوا سالمين لم يصبهم أذى ، إلى مناطق المسلمين التي كانت تعج بالتركمان والعرب والمشارقة الذين قدموا من القدس ومن دمشق وحلب وغيرها من المدن لنجدة حامية أنطاكية ، ولما جاءتهم أخبار زحف الجيش المسيحي على بلادهم ، تأهبوا لحرب المسيحيين ، وما كاد الظلام ينقشع أمام بزوغ الفجر حتى كانوا قد

أشرفوا على الناحية التي تجمعت فيهـا قـواتنا ، وانشـطر هؤلاء البرابرة إلى شطرين ، شطر تلقانا من الامام وشطر حاول الالتفاف حولنا قصد تطويق قواتنا مـن جميع الجهـات ، لكن كونت فلاندرز الشجاع ، والمسلح بإيمـانه وبشـارة الصـليب ، الذي كان يحمله إخلاصه له على مصـاحبته وحمله اينمـا كان ، كر عليهـم في ذات الوقت الذي هاجمهم به بوهموند ، وهكذا حمل رجـالنا حملة رجـل واحد على العدو ، الذي سرعان مـا ولى هـاربا لايولي على شيء ، تاركا وراءه عددا كبيرا مـن القتلى ، وقـد اسـتولى رجـالنا على خيولهم وسواها من الغنائم ، اما أولئك الذين نجوا من القتل ، فقد استمروا في فرارهم ، وحق عليهم « الهلاك الأبدي » اما نحن فقـد رجعنا ظافرين مسرورين نسبح ونمجد للرب الذي هو في الوقت نفسه ثالوث واحد ، والذي له الملك الآن وإلى الأبد .

امين

obeikandl.com

الكتاب السادس

حصار انطاكية

obeikandl.com

(كانون أول ١٠٩٧ ــ شباط ١٠٩٨)

هجوم التركمان على الصليبيين وحملة التموين ــ فرار بطرس الناسك ووليم النجار
رحيل تاتيشوس ــ انتصار بوهموند على التركمان قرب بحيرة أنطاكية

١٤ ــ وحين ترامى الخبر إلى التركمان ــ أعداء الرب والمسيحية المقدسة ــ الذين كانوا داخل انطاكية للدفاع عنها ، بتغيب الأمير بوهموند وكونت فلاندرزعن الحصار ، خرجوا منها ، وهاجمونا واشتبكوا معنا في قتال شديد ، وكانوا يؤثرون مهاجمة المناطق الضعيفة ، ولما كانوا على بينة من غياب هذين الفارسين البارعين ، وبعدهما عنا ، فقد عقدوا العزم على مهاجمتنا والقضاء علينا في يوم الثلاثاء (٤٥) .

وسار هؤلاء البرابرة المرعبون في ظلام الليل ، وانقضوا علينا بشدة متناهية فقتلوا عددا كبيرا من فرساننا ورجالتنا الذين اهملوا أمور الدفاع عن انفسهم ، وخسر أسقف بوي ــ في يوم البؤس هذا ــ وكيله الذي كان يقود إحدى الكتائب بنفسه ويحمل رايته ، ولو لم يكن النهر يفصل بيننا وبينهم لتكررت غاراتهم علينا ولأصابوا منا إصابات جسيمة .

وكان بوهموند العاقل آنذاك يقوم بمغادرة منطقة المشارقةومعه جيشه ، ميمما وجهه شطر جبل تانكرد على أمل أن يصادف هناك مايمكن نهبه ويستحق بذل الجهد في سبيل الاستيلاء عليه ، ذلك أن المنطقة كانت قد نهبت جميعها ، ولهذا وجد بعض عساكره القليل من الأشياء ، وعاد بعضهم الآخر صفر اليدين ، فوبخهم بوهموند الحكيم بقوله : « أيتها الجماعة التعيسة الشقية ، يا أحط

المسيحيين قاطبة ، ما الذي حملكم على الاسراع بالخروج ، فلقد كان عليكم الصبر والتريث حتى يلتئم شملنا ثانية ، والا تكونوا هكذا كالقطيع بلا راع ، فلو صادف أن لاقاكم أعداؤنا هائمين مشردين لانقضوا عليكم وفتكوا بكم أي فتك ، لأنهم يترصدونكم ليلا نهارا ، على أمل رؤيتكم بلا قائد يدبر أموركم فيهاجمونكم فرادى أو مجتمعين ، ويعملون على أخذكم أسرى » ، وما إن فرغ من كلامه هذا حتى انكفأ هو ورجاله إلى معسكرهم وقد يئسوا من الحصول على الغنائم .

وعندما رأى الأرمن والسريان رجالنا وقد عادوا بلا شيء يستحق الذكر معهم ، خالين الوفاض ، قرروا التجول في الجبال وفي أطراف الناحية المذكورة والبحث بشكل دقيق عن القمح والأطعمة كيما يشترونها ويبعثوا بها إلى المعسكر الذي انتشرت المجاعة الشديدة فيه ، وغلت الأسعار ، وكانت حمولة الحمار بثماني بوبرات أي مايساوي مائة وعشرين ديناري ، وقد لقي العديد من رجالنا حتفهم خاصة من الذين عجزوا عن دفع هذه الأثمان الباهظة .

١٥ ــ ودفعت هذه الشدة الكائنة ، والضيق البالغ القسوة إلى تسلل كل من وليم النجار وبطرس الناسك وفرارهما سرا ، وقد مضى تانكرد في اثارهما ، واعادهما وهما في غاية الخزي ، فقطعا على نفسيهما العهد بالالتزام بالطاعة ، وأقسما له الأيمان المغلظة بأنهما سوف يعودان طواعية إلى المعسكر ، وانهما سيعتذران للأمراء .

وبات وليم ليلته كلها مقيدا مربوطا بالأرض في خيمة بوهموند ، وهو في حالة كان فيها أذل من الذل ، ومثل في صباح اليوم التالي أمام بوهموند ، وقد احمر وجهه خجلا ، فخاطبه بوهموند موبخا بقوله : « أيها التعس ، ياخزي فرنسا ، ويا عار اهل غاليا واكثرهم أثاما ، ويا أتعس من على وجه الأرض ، لماذا فررت على هذه الصورة المشينة ؟ ترى هل كنت تنوي خيانة هؤلاء الفرسان والغدر بهم بتسليم جيش المسيح إلى الكفرة ، كما صنعت بسواهم

من قبل في اسبانيا ؟ ولزم وليم الصمت المطبق ، ولم ينبس ببنت شفه ، واجتمع الغاليون كلهم تقريبا وتضرعوا إلى الأمير بوهموند الا يقسوا عليه أكثر والا يزيد في الامه ، فأجاب سؤالهم ، وقال : « إن محبتي لكم تحملني على الاستجابة لطلبكم عن طيب خاطر ، اللهم إذا أقسم قسما نابعا من قلبه وروحه ألا يحيد عن طريق القدس سواء في الفرج أم الشدة ، وإذا ما رضي تانكرد ورجاله بالعفو عنه » ، ولما سمع تانكرد هذه المقالة أبدى رضاه ، وكان سرعان ماخلى بوهموند سبيله ، لكن ماحدث فيما بعد أن استولى الخزي على وليم النجار ، فما لبث أن اختفى بعد هربه .

واشتدت الفاقة وعظم البؤس اللذان ادخرهما الرب لنا جزاء خطايانا ، حتى لم يعد في الجيش كله من الفرسان أصحاب الجياد السليمة غير الف فارس .

١٦ ـ وتناهت الأخبار إلى عدونا تاتيشوس بأن جيوشا من التركمان زاحفة نحونا ، فاستبد به الخوف الشديد ، وخيل إليه أنه قد فتك بنا من قبل عدونا ، أو اننا سقطنا جميعا أسرى في يديه ،فراح يدعي مختلف الدعاوى وينتحل مختلف الأعذار الواهية ، فقال : « انظروا أيها السادة ، أيها الرجال العقلاء مانحن فيه من الضنك ، لقد عدمنا النجدة ، وضاقت بنا السبل ، فدعوني أعود إلى القسطنطينية ، وكونوا على ثقة بأنني سأعود إليكم ببحر قد غطته السفن المحملة بالقمح والشعير والنبيذ واللحوم والطحين والجبن لابل كل ماتحتاجونه ، وسأبعث إليكم بجياد الخيل للشراء ، وستصلكم المؤن عبر الأراضي التي تدين بالطاعة للامبراطور ، واقسم لكم على صدق هذا كله ، وإن أهل بيتي وسرادقي باقون في المعسكر ، لهذا كونوا على ثقة من رجوعي إليكم على جناح السرعة

ولما انهى هذا العدو خطابه مضى مخلفا كل مايملكه في المعسكر ، مضى وهو حانث بيمينه وسيظل حانثا به ، وكنا انذاك في أشد

ساعات الحاجة ، حيث ضيق التركمان علينا الخناق من جميع الجهات ضيقا لم نجرؤ حياله على مغادرة خيمنا ، فكابدنا من مجاعة هددتنا بالفناء ، ولقد عدمنا كل عون وكل نجدة ، وفر صغار القوم والفقراء إلى قبرص وإلى الأراضي الرومانية ، كما هرب بعضهم إلى الجبال ، وكانت خشيتنا من التركمان المفسدين قد جردتنا من الجراة على الذهاب إلى البحر ، وبذلك سدت أمامنا جميع منافذ النجاة .

١٧ ــ ولما تنامت الأخبار إلى بوهموند بأن حشدا كثيفا من التركمان ، يفوق العد والحصر زاحف نحونا ، اقتضاه ما جبل عليه من حكمة وغيرة على مصالح الآخرين أن خاطب الأمراء بقوله:«أيها السادة ، أيها الفرسان العقلاء ، ترى ما نحن صانعون ؟إننا لسنا من الكثرة بما يمكننا من المحاربة على جبهتين ، لكن هل تعرفون ما نحن فاعلون؟أرى أن ننقسم إلى قسمين ، حيث يمكث الرجالة في المعسكر لحماية الخيام و لاشك أنهم سيتمكنون بفاعلية من الدفاع عن أنفسهم ضد شحنة المدينة ، أما الفرسان فيظلون معنا بغية التصدي لأعدائنا الذين أقاموا معسكرهم على مقربة منا عند حصن حارم و جسر الحديد ».

ومع حلول الظلام خرج بوهموند الفطن من معسكره ومعه بقية الفرسان العقلاء ، وأمضى الليل فيما بين النهر والبحيرة ، ومع تباشير الفجر أرسل طلائعه لتبحث له عن مواضع التركمان وعدد كتائبهم ، وانطلق رجال الطلائع لتوهم ، وأخذوا يفتشون عن التركمان ويستطلعون أخبار تحركاتهم ، وما كان إلا أن شاهدوا الكثير من التركمان قادمين من جهة النهر ، وهم منقسمون إلى فرقتين ، وكانت الفرقة الكبيرة في الخلف ، وسرعان ما عادت الطلائع وهي تنادي :« انظروا هاهم أولاء ، لقد جاءوا على اهبة الاستعداد ، فهم على وشك الاقتراب منكم».

والتفت بوهموند الحكيم نحو الفرسان وخاطبهم بقوله :« ايها

السادة ايها الفرسان الذين لايقهرون عبؤوا صفوكم للقتال » ، فردوا عليه بقولهم « انك رجل عاقل ، وانك فطن كما انك عظيم مبجل ، انت ايها المقاتل الشجاع ، ياليث المعامع ، ويا بطل المعارك ، ايها المتحكم بضمائر الحروب ، افعل ما تراه مناسبا ، فقد اوكلنا امورنا اليك ، لتعمل كل ما تراه نافعا لنا ولك » .

وامر بوهموند آنذاك كل مقدم ان يعبىء فريقه تعبئة تامة ، فنفذوا تعليماته ، والتزموا بأوامره ، وكونواست فرق ، تقرر ان تقوم خمس منها بمهاجمة الاعداء ، وتراجع بوهموند بفرقته على مهل نحو الخلف ، واستبشر رجالنا ، فاشتبكوا مع الاعداء ، وتراجع ، والتحمت كل فئة بفئة وتعالت الصيحات الى عنان السماء ، وتحاربوا جميعا ، وحجب نور الشمس وابلا من النشاب هطل من كل مكان .

ولما وصل عسكر الفريق الاكبر من جيشهم الذي كان مقيما بالخلف ، هجموا بكل شدة وعنف على رجالنا ، فأخذوا يتقهقرون رويدا رويدا ، ولما رأى بوهموند العاقل هذا المشهد تألم ودعا اليه حامل رايته روبرت بن جيرارد ، وقال له : « امض بما اوتيت من سرعة فانت اشجع الرجال واندفع بكل حماس في نجدة دين الرب والقبر المقدس ، واعلم ان هذه الحرب ليست حربا مادية بل حربا روحية وكن اشجع شجعان المسيح ، صحبتك السلامة ورعاك الرب حيثما كنت » وما ان لف نفسه بشارة الصليب حتى اندفع كالليث الذي حبس عن الطعام ثلاثة ايام او اربعة ، وخرج من غيله يزمجر فيه ظمأ شديد لسفك دماء القطعان ، وانقض لساعته والقى بنفسه وسط ميدان الوغى معملا سيفه وسط قطيع من النعاج . راحت تفر من امامه هنا وهناك . ثم صار في وسط صفوف التركمان ، واشتد في حملاته ومطارداته حتى ان شعاع رايته كان يرى بريقه من فوق رؤوسهم .

وسرعان ما اوقف المقاتلون الاخرون تقهقرهم ، حينما رأوا راية

بوهموند تخفق عالية امام رايات الاخرين ، وكر جميع رجالنا كرة رجل واحد ، وحملوا على التركمان الذين فشلوا واستبدت بهم الدهشة ، فلاذوا باذيال الفرار ، فأخذ رجالنا في مطاردتهم ، وراحوا يعملون القتل فيهم حتى بلغوا جسر العاصي ، وسرعان ما انقلب التركمان الى معسكرهم فحملوا كل ما امكنهم حمله ، ثم القوا النيران فيما بقي من اشياء ، وولوا هاربين ، ولما علم الارمن والسريان خبر فرار التركمان في هذه الموقعة خرجوا من قرا هم ، وتربصوا في المكامن التي نصبوها لهم في الممرات والمسالك وقتلوا العديد منهم واسروا .

وهكذا قضت مشيئة الرب ان تدور الدائرة على اعدائنا في ذلك اليوم ، ونجح رجالنا في استرداد الخيول وغير ذلك من الاعتدة التي افادوا منها فوائد كبيرة ، وحملوا مائة رأس من رؤوس القتلى الى امام باب المدينة حيث نصبت خيام رسل صاحب مصر الوافدين على مقدمينا (٤٦) .

اما المحاربون من الرجالة الذين مكثوا في المعسكر فقد شغلوا طوال يومهم بقتال شحنة انطاكية امام ثلاثة ابواب من ابواب المدينة ، وجرت هذه الموقعة يوم الثلاثاء (٤٧) السابق لبدء الصوم الكبير ، وكل ذلك برعاية ربنا يسوع المسيح الذي مضى ليحكم مع الاب والروح القدس ، الرب له الحكم السرمدي . آمين

الكتاب السابع

حصار انطاكية

obeikandl.com

الحملة على السويدية ـ اقامة حصن المحمرة

١٨ ـ ورجع رجالنا بفضل رعاية الرب منصورين مستبشرين بنصرهم الذي حباهم به في ذلك اليوم ، أما أعداؤنا المغلوبون على أمرهم فقد هزموا هزيمة ساحقة ، ومضوا في فرارهم وهاموا على وجوههم شاردين هنا وهناك ، فمضى بعضهم الى خراسان وانطلق بعضهم الآخر الى بقية الأراضي المسلمة ، ولما رأى قادتنا أن شحنة المدينة ازدادت هجماتها علينا مع الاقتراب منا ، سهروا ليلهم ونهارهم بحثا عن الناحية التي يمكن لتلك الشحنة مباغتتنا منها ، وبناء على ذلك عقدوا مجلسا للتشاور في المسألة وقالوا : « يجب علينا قبل أن نقدم على حرب تودي برجالنا أن نشيد حصنا على المحمرة الواقعة أمام باب المدينة حيث يوجد الجسر ، ومن هنا ربما تمكنا بدورنا من تضييق الحصار على عدونا »

ووافق الجميع على هذا الرأي ، واستصوبوا المشروع استصوابا عاما ، وكان كونت صنجيل أول من تكلم فقال: « أمدوني بالعون اللازم لاعادة بناء هذا الحصن ، وسأحصنه وأتولى حمايته » ، وانبرى في الحال بوهموند قائلا: و أنا سأذهب معك اذا رضي الآخرون ،الى باب سمعان لجمع الرجال القادرين على القيام بمثل هذا العمل (٤٨) ، اما الذين سيبقون هنا فسوف يعملون على تحصين بقية الجهات للدفع عن أنفسهم » وهكذا كان ما اتفقوا عليه.

عند ذلك رحل الكونت (صنجيل) وبوهموند الى السويدية ، أما نحن فقد انضم بعضنا الى بعض وصرنا جماعة واحدة ، وشرعنا في بناء الحصن ، وإذا بالتركمان قد أعدوا أنفسهم ، وخرجوا للهجوم علينا ، وبالفعل انقضوا انقضاضا

شديدا دفع رجالنا الى الهرب وأدى الى هلاك العديد منهم مما سبب لنا رعبا شديدا.

ولما لاحظ التركمان في اليوم التالي (٤٩) تغيب قادتنا ، وعرفوا انهم قد خرجوا في الأمس قاصدين الميناء ، جمعوا شملهم ومضوا لاعتراض الذين كانوا قادمين من ناحية الميناء ، ولما رأوا الكونت بوهموند على رأس العساكر زمجروا وهللوا واندفعوا بكل شدة ، وأحدقوا برجالنا من كل جانب يمطرونهم برشقات النشاب ، فأوقعوا فيهم القتل والجرح ، ثم انقضوا عليهم بهجوم شديد ، فاضطروهم الى الفرار الى الجبل الشاهق والى كل جهة حسبوا أنها تعصمهم منهم ، ولم تقيض الحياة الا الى أولئك الذين تمكنوا من الاختفاء بالهرب السريع ، أما الذين عجزوا عن الفرار فقد لاقوا حتفهم ، واستشهد في هذا اليوم أكثر من ألف من فرساننا ورجالتنا ، وفي يقيننا أنهم عرجوا الى السماء حيث ارتدوا ثياب الشهادة البيضاء.

ولم يزحف بوهموند عبر نفس طريق البقية ، بل سرعان ما انقلب عائدا برفقة فرقة من الفرسان ، ووصل الى حيث كنا مجتمعين ، ولما كان الغضب قد اشتد بنا لمصرع رجالنا ، فقد أعدنا ضم صفوفنا وانضممنا اليهم ، وهتفنا معا باسم المسيح ، وكنا كلنا ثقة بالنصر وببلوغ القبر المقدس ، وقر قرارنا على مناجزة العدو القتال ، وأن نكون جميعا يدا واحدة في الهجوم عليه ، وأبدى أعداء الرب ورجالنا ما أذهل وأرعب ، فقد كان التركمان موقنين من النصر علينا ، وأنهم سيقضون علينا كما سبق على عساكر الكونت (صنجيل) وبوهموند ، لكن الرب المتعالي لم يمكنهم من ذلك ، فقد انقض عليهم فرسان الرب الحق ، المسلحون بشارة الصليب ، انقضاضا شديدا ، أسلموهم به الى الفرار عبر الجسر الضيق ، واستمروا في فرارهم حتى مداخل المدينة ، لكن الذين لم يتمكنوا من الفرار وعبور الجسر ، والنجاة بنفوسهم ، لضيق المنفذ ، وشدة الازدحام ، فقد لاقوا في هذا المكان الموت

الشرمدي ، وذهبوا الى نار جهنم الابدية المعدة لابليس وملائكته (٥٠)ولما تم النصر على التركمان ، شددنا عليهم الحصار ، ودفعناهم نحو النهر ، ورميناهم به ، فاصطبغت مياهه المتدفقة بدمائهم ، وكان الواحد منهم إذا حاول تسلق أعمدة الجسر ، أو أراد السباحة حتى اليابسة ، تولى أمره نشاب رجالنا الذين كانوا يغطون شاطىء النهر ، وامتلأ المكان بصراخهم وعويلهم وصيحات رجالنا ، حتى شقت الأصوات عنان السماء ، وسقط وابل من النبال والنشاب حجب نور الشمس من أن يلمحه أحد ، ووقفت نساء المدينة المسيحيات على شرفات الأسوار يرقبن هزيمة التركمان وهن يخفين سرورهن.

واستجاب الأرمن والسريان ـ طوعا أم كرها ـ لأوامر التركمان وأخذوا ينضحوننا بالنشاب ، وهلك في هذه الواقعة أثنا عشر أميرا من أمراء التركمان ، كما قتل كثيرون سواهم من خيرة المحاربين وأشجع المقاتلين ، الذين كانوا يعدون بين خيرة المدافعين عن المدينة ، حتى بلغ عددهم ألف وخمسمائة رجل ، أما الذين كتبت لهم النجاة والبقاء فلم يعودوا يملكون الجرأة على الصراخ والتهليل سواء في الليل أم النهار ، كما جرت عادتهم ، ولم يحل بيننا وبينهم غير حلول الليل ، فالظلام هو الذي أوقف الفريقين عن المحاربة واستعمال السيوف والرماح والنشاب ، وبهذا استطعنا بقدرة الرب والقبر المقدس ، أن نهزم الأعداء ، الذين فقدوا ما ملكوه من مقدرة على الصراخ والكفاح.

وأصبنا في هذا اليوم كميات كبيرة من الغنائم فيها الكثير من الحاجيات الضرورية لاسيما الخيول •

ومع صباح اليوم التالي (٥١) خرج من المدينة جماعة جديدة من التركمان تولت جمع ما وجدته على طرف النهر من جثث قتلاهم ثم اخذت هذه الجثث وقامت بدفنها في (المحمرة) الواقعة خلف الجسر امام باب المدينة ، ودفنوا مع هذه الجثث جببا (٥٢) وبيزنتيات

وقطعا من الذهب وقسيا وسهاما وغير ذلك من الحاجيات التي لاأعرف لها اسما ،ولما تنامى الى رجالنا ان التركمان قد دفنوا موتاهم حملوا عدتهم وأقبلوا مسرعين نحو تلك المقبرة الشيطانية فدمروا جميع الاضرحة ونبشوها وطرحوا ما كان فيها من جثث بعيدا ثم جمعوها والقوها في خندق حفروه لها ، كما قطعوا رؤوس القتلى وحملوها الى المعسكر (٥٣) ليعرف القوم عدد القتلى هذا عدا عن كمية من الرؤوس حملوها على اربعة من الخيول العائدة الى رسل صاحب مصر ، وبعثوا بها ناحية البحر ، ولما رأى التركمان هذا المشهد ، استولى عليهم الجزع وصاروا يبكون قتلاهم.

وفي اليوم الثالث (٥٤) ، انضممنا جميعا والتأم شملنا ، ونحن في غاية السرور ، وبغية العمل على بناء الحصن المشار اليه أنفا بالأحجار التي انتزعناها من مقابر التركمان ، وما كاد ينجز بناؤه حتى أخذنا في التضييق على اعدائنا من كل جانب ، وزال زهو الأعداء اما نحن فقد بتنا نذهب مطمئنين تماما انى أردنا ، سواء الى الجبل او المرسى ، نسبح بحمد الرب ، الذي له المجد والعلو السرمدي ، آمين.

الكتاب الثامن

نهاية حصار انطاكية والاستيلاء عليها

obeikandl.com

(من ٨ آذار الى ٣ حزيران ١٠٩٨ م)

تانكرد يحتل حصنا على فم نهر المدينة ويسد جميع المنافذ على المحاصرين.

المفاوضات بين بوهـموند وفيروز الأرمني. الاستيلاء على أنطاكية.

١٩ ــ سددنا جميع المنافذ أمام التركمان وأغلقناهــا دونهــم الا من جهة النهر ، التي كان بها حصن واحد مع دير منفرد ، ولو كان هذا الحصن تحت حكم رجالنا لما جرؤ واحد منهم على الخروج مــن واحد من أبواب المدينة ، ولاغلقت جميعا في وجوههم ، لذلك التــأم شمل رجالنا للتشاور فيما بينهــم ، وانعقــد رأيهــم على قـــولهم: « لنختر واحدا منا بغية الاســتيلاء عن طـريق القــوة على هـــذا الحصن ، وليحل بين أعدائنا وبين الوصول الى الســهل ، أو الدنو من الجبل ، وكذلك لاغلاق جميع منافــذ المدينة ومخــارجها ، وكان تانكرد أول من استجاب وقدم نفسه قائلا: « لو أنني أعرف الفــائدة التي سأجنيها من الاستيلاء على الحصــن ، فــانني ســأحتله مــع رجالي وحدهم ، وسأمنع العدو منعا باتا عن طـرق السـبيل الذي كثيرا ما جرت عادتهم على مداهمتنا منه ».

وبادر تانكرد على الفــور ، وانطلق (٥٥) مــع فـرسانه وجنوده الأشاوس ، وسرعان ما أخذ جميع المرات على التركمان وســدها بشكل محكم ، الى حد أنهم ــ وقد استبد بهم الفزع ــ لم يتجرؤوا على فتح واحد من الأبواب لجمع الأعلاف والحطب ، أو أي نوع من الحاجيات الأخرى الضروية لهــم ، ومــكث تـــانكرد هناك مـــع عساكره ، وشرع في محاصرة المدينة من جميع الجهات.

واقبل في ذلك اليوم الى المدينة فريق كبير من الأرمن والسريان ، وهم في غاية الاطمئنان ، وكانوا يحملون معهم المؤن والأقوات للتركمان وأهل المدينة ، فنهض تانكرد للتصدي لهم وأخذهم ، وبالفعل استولى على جميع ما كان معهم من الأقوات من: قمح ونبيذ وشعير وزيت وما شابه ذلك ، وكان تانكرد قد أظهر غاية القوة ، وجاء بالأمور المدهشات ، حيث تمكن قبل سقوط أنطاكية من سد جميع المنافذ أمام التركمان واستولى عليها .

وإنه لمن المحال بالنسبة لي قص جميع ما قمنا قبل احتلالنا للمدينة كما لا يمكن لأي كان ممن وجد في تلك النواحي. من الاكليروس أو العلمانيين أن يكتب أو يروي بالتمام كيف جرت الأمور ، ومع ذلك فسأروي الشيء القليل منها.

٢٠ ـ وكان هناك قائد تركماني الأصل اسمه « فيروز » (٥٦) قد تأثلت الصداقة بينه وبين بوهموند ، وكان بوهموند يلوح له في الرسائل المتبادلة بينهما بمودته ويمنيه بها ، ووعده بمكانة سامية إن هو اعتنق المسيحية ، وراح يمنيه بالشرف العظيم ، والثراء الكبير ، فوثق فيروز بتلك الوعود ، وركن الى تلك الأقوال ، وأخبره بقوله : « إنني أتولى حراسة ثلاثة أبراج ، وانني اعده بالتنازل عنها ، وبتسليمها عن طيب خاطر يوم يشاء ، وسأكون دائما على استعداد للترحيب به فيها ».

وعندما تيقن بوهموند من امكانية دخوله المدينة ، انشرح صدره ، واطمأن قلبه ثم توجه نحو بقية الأمراء وهو ثابت الجنان ، واثق ، وخاطبهم وكله بشر بقوله : « أيها الفرسان العقلاء عليكم أن تتفحصوا حالة الشقاء والمرارة التي نحياها صغارا وكبارا ، فنحن لا ندري من أين ستأتينا النجدات ، وعليه فلعله يرضيكم ويشرفكم أن يتطوع أحدنا فيرشح نفسه ويتقدمنا جميعا ، فإن مكنته احدى الوسائل أو براعته من الاستيلاء على المدينة ، أو مهاجمتها بمفرده أو بمعونة الآخرين أجمعنا الراي على

أن نملكه اياها » ولم يقبل الأمراء بعرضه واعترضوا عليه بقـولهم: « إننا لا نرضى أبدا أن ينفرد واحد منا وحده دون سواه بتملك هـذه المدينة ، بل سوف نتقاسمها جميعا فيما بيننا بـالتساوي ، وحيث أننا جميعا قد اسهمنا في هـذا العمـل واشـتركنا فيه ، ينبغـي أن نقتسم شرف الاستيلاء عليها» .

وعند سماع بوهموند هذا الرد ، ابتسم ابتسامة خفيفة ، فيمـا بينه وبين نفسه ، وتركهم لكن حتى حين ، ولم يلبث غير قليل حتى جاءتنا الأخبار تحمل الينا نبأ اقتـراب أعدائنا التـركمان والعـوام وغير الأرثوذكس وسواهم مـن الشـعوب ، وسرعان مـا اجتمـع مقدمونا للتداول في الأمر ، وقالوا : « إذا قدر لبوهموند الاسـتيلاء على المدينة وحده ، أو بمعونة الآخرين علينا أن نسلمها له عن طيب خاطر ، مشترطين عليه الوفـاء بعهـودنا مـع الإمبـراطور ، في المساعدة على رد المدينة اليه اذا قـدم لنجـدتنا بنفسـه ، والتـزم بالاتفاق الذي ابرمه معنا وأقسم على التمسك به ، وإن لم يفعل ذلك تركناها في عهدة بوهموند ».

و عند ذلك بادر بـوهموند الى مـلاحقة صـديقه (فيروز) يوميا ، وسـعى الى اغرائه بجميع ضروب الوعود والربـح الكبير ، وخاطبه بقوله: « لقد دنت الساعة المناسبة التي يمكنك فيها انجاز ما اتفقنا عليه في سبيل صلاح أمورنا ، وذلك بـأن تقـدم لي ياصديقي فيروز المساعدة التي وعدتني بها » وتجاوب فيروز وأبدى سروره ، واستعداده لتقديم المساعدة حسب الطريقة التـي يراهـا مناسبة.

ولما كانت الليلة التالية،(٥٧) بعـث فيروز ابنه سرا الى بـوهموند ليبقى عنده بمثابة رهينة ، وذلك تـأكيدا منه على انه سـوف يدخله البلد ، ويمكنه منها ، وأنفذ معه الرسالة التالية: « ينبغـي عليك أن تقوم غدا باستدعاء جميع جيوش الفرنجة ، وتتظاهر بـالذهاب الى المنطقة التي يقطنها المسلمون بغية تخريبها ، ثـم تلوي عنانك على

عجل عبر الجبـل القـائم على اليمين ، وسـأقوم أنا في ذلك الحين بملاحظة هذه القوات ، وسأنتظر وصولها لأستقبلها في الأبراج التي هي في حوزتي وتحت اشرافي ».

وقام بوهموند على الفور باستدعاء واحد من رجالته واسمه ميل كورون ، وناوله تعليماته التـي قضـت بـاستدعاء جيش الفـرنجة العظيم للتأهب للزحـف على أراضي المسـلمين ، ونفـذت تعليمـاته هذه ، وعهد بوهموند في الوقت نفسه الى الأمير غودفـري ، وكونت فلاندرز وكذلك ، كونت صنجيل وأسقف بوي بـالاشراف على تنفيذ الخطة ، وقـال « سـتسلم لنا انطـاكية هــذه الليلة بعناية الرب ورعايته » .

وجرى تنفيذ كل شيء حسب الصورة التالية: تجمّـع الفـرسان في السهل ، وأقام على الجبل جمـاعة الرجـالة ودأبـوا على الزحـف والحركة طوال الليل بعضهم في إثر بعض حتى اقتراب الفجر ، ثـم اقتربوا من الأبراج التي ظل شحنتها سـهران بهـا ، وسرعان مـا ترجل بوهموند ، وأصدر أوامره الى الذين كانوا معه ، وقال لهـم: « تقدموا ، وامضوا قدما مطمئنين متحدين ، وتسلقوا السلالم الى انطاكية ، التي ستقع الآن في أيدينا بمشيئة الرب »

وسار هؤلاء حتى وصلوا الى السلم المثبـت على اسـوار المدينة تثبيتا شديداً ، فصعد عليه زهـاء ستين رجلا من رجالنا ، وتفـرقوا على الابراج التـي كانت تحـت اشراف فيروز ، ودب الرعب في قلب فيروز ، وخشي على نفسه وعلى رجالنا من الوقوع في ايدي التركمان وذلك حين شاهد المتسلقين على السلم لايعدون شرذمـة ضـئيلة العدد ، وصاح بهم : « مـاقل عددكم ايها الفرنجة ، اين بـوهموند الشجاع ، اين هذا الفارس الذي لايقهر .

ونزل في هذه السـاعة جندي لومبـاردي (٥٨) ، واندفـع نحـو بوهموند مخاطبا اياه بقوله : ترى ماهو معنى توقفك هنا ايها الرجل

الحكيم ، انسيت ماجئت من اجله ، اما ترانا قد استولينا على ثلاثة ابراج !؟ ، واثارت هذه العبارات بوهموند ، فسارع بالانضمام الى الاخرين ، واندفع الجميع نحو السلم بحماس شديد ، وماكاد الذين فوق يلمحون هذا المشهد حتى تعالى هتافهم وهم في سرور ونشوة مرددين « انها ارادة الرب » ورددنا نحن الهتاف نفسه ، وعندئذ بدأ الارتقاء المدهش ، حيث تسلقوا الاسوار ، حتى اذا بلغوا الشرفات انطلقوا مسرعين نحو الابراج وهم يقتلون كل من يصادفوه او يعترض سبيلهم ، حتى انه كان من بين القتلى اخو فيروز نفسه .

لكن السلم الذي ارتقينا عليه تحطم ، مما احزن قلوبنا واوقعنا في كرب شديد ، وعلى الرغم من تحطمه ، فقد كان يوجد الى اليسار منا باب مغلق ، لايدري احد عنه شيئا ، وكان الظلام مايزال مخيماء واخذنا نتحسس الطريق نحو هذا الباب ، وافضى بنا البحث عنه الى العثور عليه ، فتسابقنا اليه ، وحطمناه ودخلنا منه الى المدينة .

ودوت في هذه الساعة صيحة مجلجلة في ارجاء المدينة جميعا ، ولم يضع بوهموند الوقت ، بل بادر الى الامر برفع رايته المجيدة على رابية مواجهة للقلعة .

وعندما اشرقت شمس الصباح ، ترامت الاخبار المخيفة التي هزت المدينة الى (الفرنجة) الذين كانوا لايزالون مقيمين في معسكراتهم ، فخرجوا مسرعين ، فشهدوا راية بوهموند تخفق على احد المرتفعات ، وسرعان ماقبلوا مسرعين فهجموا المدينة ودخلوها من ابوابها ، وقتلوا كل من صادفوه في طريقهم من التركمان والمسلمين ، ولم ينج من الموت الا الذين تهيأ لهم الفرار الى قلعة المدينة ، وخرجت جماعة اخرى من التركمان من الابواب ، ورأت سلامتها في الفرار .

اما اميرهم يغي سغان (٥٩) فقد نجا هو الاخر ضمن كثيرين ممن

فر معه ، واخذهم فرارهم الى بقعة عسكر بها تـانكرد ، ولم تـكن بعيدة عن المدينة ، نظرا لتعب خيولهم فقد انعـطفوا نحـو احـد الدساكر ، واعتصموا ببيت كان هناك ، وبعد هنيهة عرف السـكان من الارمن والسريان خبرهم ، فهجموا عليهم ، وقبضوا على يغـي سغان ، فقتلوه وقطعوا رأسه وحملوه الى بوهموند لينالوا الجـائزة، وبيع جهازه وسلاحه بستين قطعة ذهبية .

وجرت هذه الحوادث في اليوم الثالث من شهر حـزيران اي خـامس يوم بعد يوم الراحة ، وامتـلأت شـعاب المدينة وطـرقاتها بجثـث القتلى ، حتى غدا من المستحيل السير فيها للرائحة النتنة المتصاعدة منها ، ولم يتمكن واحد منا من السـير في الطـرقات الا على جثـث القتلى .

obeikandl.com

الكتاب التاسع

حصار التركمان انطاكية

obeikandl.com

(من ٥ حزيران حتى ٢٨ حزيران ١٠٩٨ م)

وصول أم كربوقا الى أنطاكية ـ رسالة الى الخليفة عن الجيش الصليبي ـ موقف أم كربوقا وميلها الى المسيحيين ـ هجوم كربوقا على أنطاكية ـ قصة الرؤيا ـ يمين زعماء الصليبيين ـ رؤيا بطرس ـ حريق أنطاكية والمجاعة فيها ـ هرب كونت شارتر الى الامبراطور ـ الحربة المقدسة ـ سفارة بطرس وهرلوان الى المعسكر الاسلامي ـ انتصار الصليبيين .

كان كربوقا ـ مقدم عساكر ملك فارس ـ (٦٠) موجودا في خرسان حينما وصله من يغي سغان ـ صاحب أنطاكية ـ عدة رسائل ألخ عليه فيها بالمبادرة الى انجاده ، لأن حصار الفرنجة الأقوياء له في أنطاكية قد أضر به ضررا عظيما ، ولو استجاب له كربوقا على الفور وبعث اليه بالعساكر لنجدته لسلمه يغي سغان انطاكية ، أو لقابله بجائزة كبيرة ، وكان كربوقا قد أعد للأمر عدته ، وماكاد يحصل على اذن الخليفة ـ إمامه الروحي ـ بالتوجه للقتال ضد المسيحيين ، حتى بادر الى جمع جيش كبير من التركمان زحف على رأسه في الطريق الطويل الى انطاكية .

وجاء والي القدس الى نجدته ، كما قدم أمير دمشق هو الآخر على رأس جند كثيف ، وجمع كربوقا حشودا كبيرة جدا من الغز والتركمان والعرب والمسلمين والعامة وغير الأرثوذكس والأكراد والفرس والغلمان وسواهم من الأقوام الأخرى التي لاحصر لها ولاعد ، وكان عدد الغلمان ثلاثمائة ألف رجل شاكي السلاح من القسي والرماح مسربلين بالحديد هم وخيولهم ، كل هذا مع ماعتادوا عليه من الاقتصار على حمل السيوف في الحروب دون

سواها من بقية الأسلحة ، لقد قدم هؤلاء جميعا لفك الحصار عن انطاكية وصد الفرنجة وتمزيق صفوفهم .

ولما اقتربوا من انطاكية صادفهم شمس الدولة بن يغي سغان امير انطاكية فأسرع نحو كربوقا متوسلا اليه باكيا ، مخاطبا اياه بقوله :« أيها الأمير الذي لايغلب ، أتوسل اليك أن تهب لنجدتي لأن الفرنجة يحاصرونني ـ وأنا مازلت في قلعة انطاكية ـ من جميع الجهات ، وقد وقعت المدينة في أيديهم ، وهم يبتغون اقتلاعنا من أراضي سلاجقة الروم ، ومن الشام ، بل حتى من خراسان ذاتها ، وقد أمضوا ماأرادوا فقتلوا أبي ، ولاهم لهم الآن الا القضاء علي وعليك وعلى جميع ابناء جنسنا ، وانني أتوقع منك العون تبذله لي ، والمساعدة في تخليصي من هذا الضيق » ، فأجابه كربوقا بقوله :« اذا أردت عوني ونجدتي بصدق ، وأن أبذل قصارى جهدي في سبيل دفع هذا الخطر عنك ، فسلمني هذه القلعة ، وأنذاك سترى اية خدمة يمكن ان أؤديها اليك ، فأنا سأجعلها في عهدة رجالي ».

فرد عليه شمس الدولة قائلا :« لئن تمكنت من القضاء على الفرنجة جميعا وأسلمتني رؤوسهم فسأتخلى لك عن القلعة وأصبح واحدا من رجالك ، والقلعة من أملاكك » . فأجابه كربوقا :« لالن يكون الأمر كما تقول ، بل إن كل شيء مرهون بتسليمك القلعة ». فأذعن شمس الدولة وتنازل له عن القلعة راضيا أو كارها .

ووصلت طلائعهم الى اسوار انطاكية في اليوم الثالث (٦١) بعد دخولنا المدينة ، وعسكر جيشهم عند جسر العاصي ، وانقضوا على احد الابراج (٦٢) ، فقتلوا كل من صادفوه فيه ، ولم ينج منهم غير مقدمهم عثرنا عليه مقيدا بالسلاسل لديهم اثر المعركة الكبرى (٦٣) .

وتحرك جيش الكفار في اليوم التالي (٦٤) ، واقترب من اسوار

المدينة ، وأقام معسكره بين النهرين ولبث هناك مدى يومين ، ولما تسلم كربوقا القلعة دعا اليه واحدا من قادته (٦٥) ، وقال له:« اريدك ان تكون وفيا لي مخلصا في ولاية القلعة ، وأنا أعلم منذ زمن طويل وفاءك واخلاصك ، وانني عاهد بأمر الدفاع عنها والمحافظة عليها اليك » فأجابه هذا القائد « بودي لو أعفيتني من هذا الأمر ، ومع هذا فانني أقبل به على شرط واحد ، وهو أن أقوم بتسليم القلعة الى الفرنجة ان هم أوقعوا بك وهزموك » فرد عليه كربوقا بالقبول وقال له :« امض لما أمرت به فأنا أقدر فيك صدقك وعقلك ، وأرتضي بكل ماتراه وترضي به من خير ».

ورجع كربوقا الى جيشه وأراد التركمان أن يقللوا من شأن الفرنجة ، فأتوه بسيف رخيص قد علاه الصدأ ، وبقوس مسود ، وبحربة غير صاحلة للإستخدام كانوا قد أخذوها من جماعة من فقراء الحجاج ، وقالوا :« انظر هذه هي الأسلحة التي يحملها الفرنجة في حربهم لنا » فافتر فاهه عن ابتسامة فيها سخرية وقال :« أهذه حقا الأسلحة الجيدة الحادة التي ينشد المسيحيون قهرنا بها في آسية ، والتي يظنون أنهم قادرون بها على طردنا الى ماوراء خراسان وإزالتنا من تلك الديار حتى أنهار الأمازونيين (٦٦) ، هؤلاء المسيحيون الذين اجلوا اخواننا من آسية الصغرى ، ومن أنطاكية ، المدينة الفاخرة وحاضرة بلاد الشام جميعا ».

ثم بادر الى استدعاء كاتبه وقال له :« اكتب الآن جميع المناشير التى ستقرأ في خراسان وقل فيها : الى خليفتنا الجليل ، والى مولانا السلطان المعظم والفارس الشجاع ، والى جميع امراء خراسان العقلاء ، السلام عليكم ، والتوقير والاحترام لكم ، وبعد : فليتهيأ للمقام العالي من السعادة والتوفيق الكريم مايتيح لهم النعمة والشكر في جميع البلدان ، والانصراف نحو الذود عنهم ومنعتهم ، وانجاب الذرية الكثيرة العدد لتتمكن من جهاد المسيحيين بكل شجاعة ، ونحن أخذنا الجيوش الثلاثة واستطعنا

بها قهر فريق من الفرنجة ، ولقد عرفنا صفة السلاح الذي يستخدمه الفرنجة في حربنا ، وليعرف الجميع انني أخذت الفرنجة الذين في أنطاكية ، واستوليت على القلعة وصارت في يدي ، ولسوف يساق الفرنجة الى الموت او الأسر في خراسان ، فهم الذين يتوعدونا بالطرد على يد جيوشهم وبالجلاء عن بلادنا ، كما فعلوا حين أجلوا أبناء قومنا من آسية الصغرى واالشام ، واني لأقسم لكم بمحمد وبجميع اربابنا (٦٧) لن اقف بباكم وامثل امام جنابكم قبل ان اجاهد بحد سيفي القوي مدينة انطاكية الفاخرة وجميع بلاد الشام وآسية الصغرى وبلغاريا حتى ولاية ابوليا تمجيدا لآلهتنا ، ولكم ولجميع معاشر التركمان».

على هذه الصورة اذا كانت خاتمة الرسالة .

٢٢ــ وكانت والدة كربوقا في حلب ، وقد قدمت لرؤية ولدها ، ولدى مقابلتها له أجهشت في البكاء وقالت سائلة إياه :« أحقا ما سمعته ؟ فسألها : وماذا سمعت : فأجابته ؟ سمعت أنك متوجه لحرب جيوش الفرنجة ، فقال : لقد سمعت حقا ، فتوجهت إليه بقولها : أسألك ياولدي بحق جميع الأرباب ، وبحق سجاياك الكريمة وعفوك ، ان تتراجع عن قتال االفرنجة ، أنت أيها الفارس الذي لايعرف الهزيمة ، ولم يرك أحد قط فارا أمام أحد من الغزاة ، فلقد طبقت شهرتك وشجاعتك الآفاق ، حتى أن أشجع الفرسان ليرتجفون حين سماع اسمك أنى كانوا ومهما كانوا ، ونحن نعرف يابني أنك أخو غمرات ورجل غارات ، عركتك الأيام وعركتها ، ولن يستطيع أي شعب ــ وثنيا كان أم مسيحيا ــ أن يزهو أمامك ويتفاخر بقوته ، بل يهرب الجميع من أمامك لدى السماع باسمك كما تهرب النعاج من زئير الأسد ، لهذا كله أتوسل اليك ياولدي الحبيب أن تسمع قولي وتصغي الي نصائحي ، فلا تحاول مطلقا التفكير في قتال الشعوب المسيحية أو منازلتها ».

وعندما فرغت من مقالتها هذه أجابها مرعوبا :« ماهذا الذي تتفوهين به ياأماه ، أتراك جننت ، أم نزلت بك نازلة؟ ان بصحبتي عددا كبيرا من الأمراء الذين ليس لدى المسيحيين من يناظرهم بين الكبار والصغار » فأجابته : « أنني أعرف يابني مصداق ماتقول ، وأن المسيحيين لايمكنهم الوقوف في وجهك في الحرب ، وأعلم أنهم عاجزون عن النهوض الى حربنا ، لكن ربهم يحارب دوما بين صفوفهم ، وهو يدافع عنهم ويحميهم ليلا ونهارا كما يحمي الراعي قطيعه ، ولايقبل أن تمسهم أية أمة بأدنى شر أو سوء ، وأن ربهم سيؤذي كل من يتطلع الى مقاومتهم مصداقالما جاء على لسان النبي داود « نشتت الشعوب الذين يسرون القتال (٦٨) » وقوله« افض رجزك على الأمم الذين لايعرفونك وعلى الممالك التي لم تدع باسمك (٦٩) » ، وانك لترى كيف ان ربهم القوي الذي لايقهر قد قضى ـ قبل ان يصطفوا للحرب ـ على جميع أعدائهم بوساطة ملائكته ، اعرف الحقيقة ياولدي الحبيب ، وان هؤلاء النصارى يسمون ابناء المسيح ، وقد جاء على لسان الرسل:« انهم اولاد الموعد (٧٠) » وقول الرسول ايضا:« انهم ورثة الله في وارثون مع المسيح (٧١) » ، وهم الذين حباهم الرب بالميراث الذي وعدهم اياه ،، لأنه القائل على لسان الرسل :« من المشرق الى المغرب تكون قوتهم في وجههم» (٧٢) فمن الذي يمكنه التصدي لهذه الأقوال ومناهضتها ؟ والحق اقول :انك اذا أقدمت على حربهم عدت بالخسارة الكبيرة والعار المقيم ، وستفقد العديد من فرسانك المخلصين ، وتترك وراءك نخائرك غنيمة وتفر يلاحقك الرعب الشديد ، أجل انك لن تقتل في هذه المعركة ، بل ستموت في بحر هذه السنة ، فالرب في غضبه يمهل ولايهمل من أساء اليه ، يترك حسابه الى الساعة التي يقررها بذاته ، وعندها سينتقم منك أبشع انتقام ، ولهذا أخشى أن يراك الرب تستحق العذاب الشديد ، وانني أقول لك :. انك ستخسر كل ماتمتلكه الآن يداك .

وكان وقع هذا الكلام على كربوقا شديدا ، فالتفت نحو أمه والأسى ظاهر عليه قائلا :« انني اتوسل اليك ياأمي العزيزة أن

تخبريني وتبيني لي من الذي أخبرك بكل هذا عن الشعب المسيحي ، من الذي أعلمك أن ربه يحبه الى هذه الدرجة حتى أنه ليمده بمثل هذا العون أثناء القتال ، ومن الذي أنبأك أن الغلبة ستكون لهؤلاء المسيحيين علينا أمام أنطاكية ، وأنهم سيغنمون نخائرنا وأنهم سيسيرون خلفنا اثر نصرهم المؤزر علينا ، ثم من الذي أخبرك ان المنية ستخترمني فجأة في عامي هذا »؟

فأجابته أمه و الألم يعتصر قلبها اعتصارا :« ياولدي العزيز ، لقد وضح لبعضهم منذ أكثر من مائة عام أنه جاء في كتابنا وفي كتب الوثنيين أن الأمم النصرانية ستقوم بالهجوم علينا وسيكتب لها النصر علينا في كل جهة ، وأنها ستسود على الكفار ، وأن شعبنا سيخضع لها ، وأنا لاأعرف يقينا فيما اذا كان مقدرا لهذه الأمور جميعا أن تقع الآن ، أم أنه لم يحن وقتها بعد ؟ فلقد لحقت بك – والأسى يحز نفسي – من حلب – المدينة العظيمة التي تمكنت فيها بعد البحث والتدقيق ، ومن خلال سؤال النجوم واستطلاع البروج الاثني عشر والنبوءات الكثيرة ، ولقد أخبرتني هذه الظواهر جميعا أن الشعب المسيحي سيتغلب علينا أنى كنا ، وإني لأرتعد خوفا وأسى خشية أن أفتقدك ».

فأجابها كربوقا :« أخبريني – ياأمي الغالية – بكل مالا تتقبله نفسي ولاتؤمن به » ، فأجابته :« لايابني ماكان لي أن أستجيب لطلبك هذا طواعية ، هذا لو كنت على بينة من الأمور الخافية عليك ».

فقال لها :« إن بوهموند وتانكرد ليسا من أرباب الفرنجة ، ولا يخلصانهما من أعدائهم لأنهما يأكلان في المرة الواحدة : ألفي بقرة وأربعة الاف خنزير (٧٣) »، فأجابته أمه بقولها : « اعلم ياولدي العزيز أن الموت سيطال بوهموند وتانكرد كما سيطول بقية البشر ، لكن ربهما فضلهما على سواهما ومنحهما قدرة يحاربان بها الجميع ، لأن ربهم القدير – تقدس اسمه – يقول :(انه صنع

السماء والأرض والبحر وكل ما فيها) (٧٤) وإن عرشه موجود في السماء منذ الأزل وبأسه مرهوب في كل مكان» ، فانبرى ابنها يرد عليها بقوله: « لن امتنع عن قتالهم حتى لو كان الأمر كما تزعمين» ، تيقنت أنه لن يستجيب لنقدها الشديد له تركته وقلبها يعتصر حزنا ، وتوجهت عائدة الى حلب ، حاملة معها ماأمكنها حمله من الذخائر .

٢٣ - ووضع كربوقا - في اليوم الثالث (٧٥) - سلاحه ولبس لامته ، وحمل حتى اقترب من المدينة ، ومعه فئة كبيرة من التركمان ،، وجاء هجومه من جهة القلعة ، وحيث اننا كنا قد خيل الينا ان في امكاننا دفعه ، فقد نظمنا صفوفنا وأعددناها للحرب ، ولكنهم أبلوا بلاء شديدا عجزنا حياله عن مقاومتهم ، وتراجعنا بصعوبة بالغة نحو المدينة التي كان بابها شديد الضيق ، لهذا مات عدد كبير منا خنقا تحت أقدام رفاقهم .

وفي خامس أيام الأسبوع كان بعض منا يحارب خارج المدينة وبعضنا الآخر من داخلها ، وظل الحال هكذا حتى حلول الظلام ، وفي تلك الأثناء استولى الهلع على نفوس وليم دي غراندميل وأخيه أوبرى وغي تروسو ، ولامبرت الفقير (كونت كلير مونت) وذلك نتيجة لقتال الأمس الذي استمر حتى المساء ، لهذا تسربلوا الظلام وانسلوا مترجلين في ظلمة الليل ومروا هاربين بجانب السور المقابل لشاطىء البحر ، وعانوا كثيرا ودميت أيديهم وأقدامهم ولم يبق فيهم سوى العظام ، وقد رافقهم في فرارهم هذا كثيرون ممن لاأعرفه .

وعندما وصلوا الى السفن في ميناء السويدية ، قالوا لبحارة هذه السفن :« ماذا تفعلون هنا أيها الأشقياء ؟ لقد هلك رجالنا جميعا ولم يبق منهم أحد ، ولم ننج نحن الا بعد عذاب شديد ، حيث ان جيش التركمان كان يحاصر المدينة من جميع الجهات عندما كنا فيها » ، فلما سمعوا هذه المقالة منهم دهشوا وجزعوا فانطلقوا

نحو مراكبهم مبحرين ، وتسارع التركمان نحوهم وفي آثارهم فقتلوا كل من صدفوه منهم ، وأضرموا النيران في المراكب الراسية في مجرى النهر واستولوا على ماخلفوه من أسلاب .

أما بالنسبة الينا نحن الذين بقينا (محاصرين في المدينة) فلم نعد نستطيع احتمال وطأة أسلحتهم لهذا أقمنا بينهم وبيننا سورا تناوبنا على حراسته ليلا ونهارا ، واشتد الحصار علينا وضاق بنا الحال حتى اضطررنا الى أكل خيولنا وحميرنا.

٢٤ـ وفي أحد الأيام ، وبينما كان مقدمونا مجتمعين في أعلى المدينة مقابل القلعة يتشاورون والحزن ظاهر عليهم واليأس قد استبد بهم اذا بواحد من الرهبان (واسمه ستيفن فالنتان) يمثل أمامهم ويخاطبهم بقوله :« أيها السادة ، هل لكم أن تصغوا الى ماسأقصه عليكم ، لقد رأيت البارحة حينما كنت نائما في كنيسة القديسة مريم ـ والدة الرب يسوع المسيح ـ رؤيا هاكم وصفها : لقد ظهر لي مخلص العالم وبرفقته أمه وبطرس الطوباوي سيد الحواريين ، وناداني قائلا : أوتعرفني ، فأجبته بلا ، وعند ذاك رأيت فوق رأسه صليبا كاملا ، فسألني الرب ثانية : « أوعرفتني الآن » ؟ فأجبته : « ماكان لي أن أعرفك لولا أنني رأيت فوق رأسك صليبا يماثل صليب مخلصنا » فقال لي :« إنني هو بعينه »، فانكببت في الحال على قدميه متذللا متوسلا اليه كي ينقذنا مما نحن فيه من المآسي ، فأجابني الرب : « لقد ساعدتكم فيما مضى ، وإنني ماض في مد يد العون لكم ، كما ساعدتكم في الاستيلاء على نيقية ، وكما رعيتكم حتى أوصلتكم الى هنا ، ولقد أحزنني ماكابدتموه من مشقة أثناء حصار أنطاكية ، ولكنكم استطعتم بفضل مساعدتي لكم أن تدخلوا المدينة سالمين غانمين ، بيد انكم فسقتم مع نساء فاسدات من المسيحيات والكفار ، فتصاعد النتن حتى بلغ السماء ».

وحينذاك ركعت البتول وبطرس الطوباوي على قدميهما متوسلين

اليه راجين ان يعطف على شعبه فيعينه في محنتـه وينجـيه مما ألم به ، وتوجه اليه بطرس المبارك بقوله :« أيها الرب ، لقد طال أمد استيلاء الشعب الوثني على بيتي الذي لحق به من جراء هذا الأمر مساوىء يعجز اللسان عن نعتها ، فلنطرد الآن الأعداء أيها الرب ، ولتفرح الملائكة في السماء ».

فالتفت الي الرب قائلا :« امض الى شعبي وأخبره وليعد الي ، فسأعود أنا اليه ، وأمامه أيام خمسة سأبعث بعدها بعون عظيم ، ومره فليرتل كل يوم بهذه الترتيلة مع بقية المقاطع :« هو ذا الملوك اجتمعوا» (٧٦) •

والان أيها السادة إذا ساوركم شك في صحة ماقلت وماورويت فإسمحوا لي أن أصعد الى رأس البرج ، وأن أطرح نفسي من أعلاه الى أسفله ، فأن سلمت فصدقوا بما قلت ، وأن أصابني سوء فاقتلوني أو اجعلوني طعمة للنار .

وعند ذلك أمر أسقف بوي باحضار الأناجيل والصليب ليقسم هذا الراهب على صحة ماقاله ، واتفق في تلك الساعة مقدمونا على أن يقسموا بسر القربان المقدس الا يحاول أحدهم - مادام حيا - أن يفر أو يحاول النجاة من الموت أو يسعى لانقاذ حياته ، ويذكر أن بوهموند كان أول من أقسم ثم تلاه كونت صنجيل ، فروبرت النورماندي ، فالأمير غودفري ، فكونت فلاندر ، أما تانكرد فلم يقتصر في يمينه على أنه لن يتخلى أبدا عن متابعة هذه الحرب ، بل زاد أنه لن يتخلى مطلقا عن الزحف نحو القبر المقدس حتى ولو لم يبق معه سوى أربعين فارسا .

ولما تناهت أخبار هذا القسم الى الجيش المسيحي دبت الفرحة بين صفوف رجاله جميعا .

٢٥- وكان هناك حاج من جيشنا اسمه بطرس(٧٧) (بارثليمو) تراءى له القديس اندراوس الرسول قبل

دخولنا الى المدينة وقال له :« مـــاذا تفعـــل هنا أيهـــا البـــطل الصنديد ؟ فأجابه : وأنت ،ثم من أنت فقـــال له الرســول : « انني الحــواري أندراوس ، اســمع يابني عرج – حين دخـــولك الى المدينة – على كنيسة القديس بطرس – القسيان – وســتجد بهــا حربة مخلصنا يسوع المسيح التي طعن بها حين رفــع على خشــبة الصليب » ، ثم اختفى الرسول بعد مافاه بهذه العبارة .

وخاف هذا الرجل من الجهر بمـــا أشـــار بـــه الحـــواري عليه ، فأمسك عن اخبار حجاجنا بفحــوى تلك الرؤيا ، وخيل اليه أن ماراه كان مجرد أضغاث أحلام ، لهذا ردد في نفسه : ترى مـــن يستطيع تصديق هذا ؟ وماكاد يفرغ من ذلك حتـــى أخــذه القــديس أندراوس وسار به شطر تلك الناحية حيث كانت الحــربة مــطمورة تحت الأرض .

وفي الساعة التي كنا موجودين فيها في ذلك الوقــت الشــديد الذي وصفته آنفا (٧٨) عاد القديس اندراوس الى بطرس وقال له: لماذا لم تخرج الحربة من باطن الأرض كمـــا أشرت عليك ، أولا تعلم أنه لم يغلب قوم قط حملوا هذه الحربة معهـــم في الحـــرب ؟! ، وهنا أفضى بطرس بالحال الى حجاجنا بالخبر وكشف السر الذي استودعه إياه القديس الحواري ، فلم يصدقه القوم بل أنكروا مـــاقال ، وســـألوه : كيف نؤمن بصحة هذا القول ؟.

وكان الهلع مستوليا على نفوسهم ، وكانوا يتـــوقعون الموت بين ساعة وأخرى ، فذهب بطرس اليهم واقسم لهـــم أنه صـــادق في كل ماقاله ، وأن القديس أندراوس تراءى له مرتين وقـــال له : انهض وامض الى الشعب وأخبره الا يخشى شيئا ،بل عليه أن يؤمن إيمـــانا صادقا من كل قلبه بإله الرب واحد حقيقـــي ، وأنه ســـينتصر في كل مكان ، وأن الرب سوف يبعث اليه في الأيام الخمسة المقبلة بـــرسالة تملؤكم فرحا وحبورا واذا أراد الشعب القتال فليخرج بأجمعه متحدا الى الحرب ، فسينتصر على جميع أعدائه نصرا مبينا ،.لن تقوم له بعده قائمة أبدا .

ولما سمع الحجاج بأن القضاء الشامل على أعدائهم سينجز على أيديهم ، استعادوا رباطة جأشهم وأخذ بعضهم يشجع بعضا قائلين : انهضوا وكونوا رجالا شجعانا عقلاء لأن الرب سيبادر في الحال الى عوننا و سيكون في ذلك عزاء لشعبه الذي يرى الآن ماهو فيه من شدة .

٢٦ـ وراح التركمان الذين كانوا في الأجزاء العليا من القلعة يزحفون نحونا حتى صاروا على مقربة منا ، ونجحوا ذات مرة في محاصرة ثلاثة من فرساننا في برج كان واقعا قبالة قلعتهم ، وفي الحقيقة وجد الكفار منفذا انقضوا منه عليهم بشدة وعنف الى حد أنهم لم يستطيعوا الصبر على مجالدتهم ، وخرج من البرج اثنان من الفرسان قد أصيبا بالجراح ، أما الثالث فقد صمد في الدفاع عن نفسه ، ودافع التركمان لمدة يوم كامل ، وقتل منهم اثنان امام السور ، بعدما تكسرت في يديه ثلاث حراب ، وواجه الفارسان حتفهما ثم لحق بهما الثالث وكان اسمه هيج الثائر ، وكان من أصحاب غودفري دي مونت سكابيوزو (٧٩) .

ولما وجد بوهموند المبجل أنه من المحال ايجاد رجال يقومون بمهاجمة القلعة ، لبقاء الجميع في بيوتهم بسبب المجاعة وخوفا من التركمان ، لما وجد هذا الحال اشتد به الغضب وأمر بالقاء النار في المدينة في الناحية التي قام بها قصر يغي سغان ، و لما تراءى منظر النيران للجماعات التي كانت داخل البيوت غادرت مساكنها ، وخلفت كل ماكانت تملكه ناجية بحشاشة نفوسها ، فانطلق فريق باتجاه القلعة ، وفريق آخر الى باب كونت صنجيل ، وفريق ثالث نحو باب غودفري ، أي أن كل فريق توجه هاربا نحو الجماعة التي انتسب اليها .

وثارت في تلك الساعة فجأة ريح شديدة ، لم يستطع أحد أن ينتصب حيالها واقفا ، مما بعث الأسى في نفس بوهموند العاقل ، فقد خشي أن يمتد الحريق الى كنيستي القديس بطرس

والقديسة مريم وسواهما من الكنائس . واستمرت هذه المحنة من الساعة الثالثة حتى منتصف الليل ، وأتت النيران على ألفي بيت وكنيسة ، ثم خمدت جذوتها حين أوشك الليل على الانتصاف .

ولم يتوقف التركمان الذين كانوا في داخل المدينة عن حربنا ليلا ونهارا ، ولم يعد يمنعنا منهم سوى دروعنا ، ولما رأى رجالنا أنهم لم يعودوا يحتملون هذه المتاعب لأنه لم يعد بالامكان أكل الخبز لمن كان معه خبز ، وشرب الماء لمن كان معه ماء ، ولهذا شيدوا بينهم وبين التركمان سورا من الجير والكلس ، وأقاموا حصنا وضعوا فيه مختلف الأعتدة اللازمة لضمان سلامتنا ، وأقام في الوقت نفسه فريق من التركمان في القلعة في حين عسكر الفريق الآخر في واد قريب من القلعة .

ومع حلول الظلام لاحت في السماء نار مقبلة من جهة الغرب ، وأخذت في الاقتراب حتى سقطت وسط معسكر الجيش التركماني ، فاستولت الدهشة على رجالنا وعلى التركمان سواء ، ومع اشراقة الصباح فر الخائفون جزعا ورهبة من رؤية هذه الظاهرة السماوية حتى اذا بلغوا باب بوهموند عسكروا عنده .

ودأب رجال شحنة القلعة على مناوشة رجالنا القتال ليلا ونهارا ، فجعلوهم مابين جريح وقتيل بفعل نشابهم ، أما بقية التركمان فقد أخذوا في تشديد الحصار على المدينة من جميع النواحي الى حد انه لم يعد يجرؤ احد منا على الخروج منها او الدخول اليها الا ليلا او بالخفاء ، وبذلك صرنا نعاني ونكابد من هذا الحصار الضيق الشديد والعذاب على ايدي هؤلاء الأعداء الذين كانوا في الأعداد الدثرة.

وشرع أعداء الرب الدنسون هؤلاء في تشديد الحصار علينا ونحن في داخل انطاكية حتى مات العديد منا جوعا ، وغلت الأسعار حتى كان الرغيف يباع ببيزنتية ، ولاحاجة بي الى ذكر النبيذ

لانعدامه ، وأكل الفرنجة لحوم الخيول والحمير وابتاعوها ، وبيعت الدجاجة بخمس وعشرين « سوسية » والبيضة « بسوستين » والجوزة بديناري ،و على هذا كان كل شيء يباع بأثمان خيالية ، ولهذا عمت المجاعة واشتدت نكايتها ، حتى أخذ بعضهم يقيم المطابخ التي يقدم فيها للناس أوراق التين والعنب والعظام ، وطهى آخرون في مطابخهم جلود الخيول والجمال والأبقار والجواميس اليابسة ، ولقد عانينا كل هذه الآلام والشدائد وسواها مما يستحيل وصفه في اسم المسيح ، ولكي نمهد الطريق حرا الى القبر المقدس .

وهكذا مر بنا ستة وعشرون يوما ونحن فرائس لهذه الشدائد والمصاعب وأمثالها .

٢٧ـ كما وقام كونت شارتر (٨٠) الذي مال عن منهج السداد ـ وكان سبق لقدمينا أن انتخبوه رئيسا أعظم ـ فتظاهر بالمرض وذلك قبل الاستيلاء على أنطاكية ، وارتد بكل خزي والعار يجلله الى بلدة أخرى حصينة اسمها الاسكندرونة ، ورحنا ننتظر قدومه الى نجدتنا كل يوم ، ونحن على مانحن عليه داخل المدينة ، دون مساعدة تخلصنا مما كنا فيه .

فهو ماكاد يعرف بأن جيش التركمان محدق بنا ومحاصر لنا حتى تسلل سرا وصعد رأس جبل (٨١) قريب من انطاكية ، فشاهد الخيم التي لايحصيها عد ، واذ ذاك استبد به الهلع ، فارتد بجنده بكل سرعة ، حتى اذا وصل الى معسكره قوض خيامه ورحل ومعه رجاله موليا الأدبار (٨٢) .

ولما دخل على الامبراطور في بلدة فيلوميلون (٨٣) سأله الاجتماع به على انفراد حيث قال له:« اعلم انه قد تم استيلاء التركمان على ماحول انطاكية ، أما المدينة فلم تسقط في أيديهم بعد ، وتركت رجالنا وهم يعانون من شدة الحصار ، ومن المرجح انهم ماتوا الآن

جميعا على أيدي التركمان ، وعليك ان ترجع بأسرع مايمكنك حتى لاتقع انت وجندك فريسة في أيديهم » .

واستبد الخوف بالامبراطور وجزع جزعا شديدا ، فاستدعى اليه غي اخا بوهيموند (٨٤) وجماعة اخرى وخاطبهم بقوله:« ايها السادة ترى ما نحن فاعلون؟ هاهم التركمان قد ضيقوا الخناق على جميع اخواننا ، وربما يكونون الآن قد فتكوا بهم وابادوهم او اخذوهم اسرى ، كما يذكر لنا هذا الكونت الذي فر« بخزي» وارى بات علينا أن نبادر بالتراجع قبل أن يلحق بنا مالحق إخواننا من الفناء المروع ».

ولما سمع غي – الفارس الشجاع – هذه الأكاذيب اجهش في البكاء هو ومن معه ، وانتحب نحيبا طويلا وصاح وصاحوا : أيها الرب المتعال ، أيها الثالوث الواحد ، لماذا ارتضيت بحدوث هذه الامور جميعا ، لما ارتضيت لشعبك المؤمن بك أن يقع في أيدي أعدائه ، لماذا سارعت فتخليت عن هؤلاء الذين يسعون الى تمهيد الطريق نحو هيكلك وجعله حرا طليقا آمنا ، يارب لو صح ماسمعناه وتحقق ماقاله هؤلاء الأشقياء ، فاننا سنهجرك نحن والمسيحيون الآخرون ، ولن تعود تخطر ببالنا ، ولن يجرؤ واحد منا بعد ذلك على الدعاء باسمك أبدا .

وسرت هذه الأخبار المشؤومة بين صفوف الجيش اجمعها ، حتى أنه انقضت عدة أيام لم يهتف فيها واحد من الأساقفة أو الشمامسة أو رجال الاكليروس أو العلمانيين باسم المسيح أو أتى على ذكره .

وفي الحقيقة لم يستطع أحد أن يقدم العزاء أو المواساة إلى غي الذي ماانفك يبكي وينتحب ويضرب على صدره ويلوي اصابعه وهو يقول : واأسفاه ياسيدي بوهموند ياشرف الدنيا وزينة العالم ، يامن كانت الدنيا تخافه وتحبه ، واشقوتاه ، اي قاصمة نزلت بي واي داهية ، أما كنت استحق في مصيبتي بك ان

أرى طلعتك البهية ، لقد كان هذا غاية سؤالي ومطلبي ، من ذا الذي يمكنني من ان افديك بنفسي ، ياسيدي ، ياصديقي الغالي ، لماذا لم أواجه منيتي يوم ولدتني أمـي ، ولماذا كتـب علي ان اعيش حتـى أشهد يومك المشؤوم ، لماذا لم أغرق ، لماذا لم يكب بي فرسي فيندق عنقي ؟ كم كنت أتمنى أن أكون معـك فـأنال الشـهادة الكريمـة وأشهدك وانت تواجه منيتك بشرف وشجاعة .

ولما جاء الجميع لتقديم العزاء له ومحـاولة مـواساته ، اسـترد صوابه وأفاق ثم قال : ترى ماذا ترون بهذا الفارس العجـوز الذي فقد صوابه ، هل سمعتم قط أنه أنجـز عمـلا مـن أعمـال الفروسية ؟ لا ، لقد اختفى وهرب متسربلا بالعار ، وتستر خـائفا كما يتستر الشقي الأثيم ، الا فليكن معلومـا لديكم جميعـا أن كل ماتفوه به هذا الشقي هو افك وباطل محض .

وارسل الامبراطور في تلك الأثناء أوامره وتعليمـاته الى رجـاله قائلا لهم : « انهضوا وقودوا جميع رجـال هـذه المنطقـة نحـو بلغاريا ، وقبل ذلك جوسوا خـلال الديار ، فخـربوا جميع البقـاع حتى اذا قدم التركمان لم يجدوا شيئا ».

وارتد رجالنا ـ طوعا وكرها ـ وهم في غاية الحزن واليأس وقد دب الخور في نفوس كثير من حجاجنا وغدوا عاجـزين عن اللحـاق بالجيش ، فتوقفوا عن السير ، وهلك بعضهم أثناء الطريق ، امـا الباقون فعادوا الى القسطنطينية .

-ولدى سماعنا لأقوال (بطرس بـارثلميو) الذي نقـل الينا ماأوحاه المسيح على لسان الرسول ، اندفعنا بكل سرعة ممكنة نحو كنيسة القديس بطرس التي ذكرها ، وعمل ثلاثة عشر رجـلا منا في الحفر من الصباح حتى المساء ، وآنذاك عثر الرجل على الحـربة في الموضع الذي أشار اليه ، فتلقفهـا القـوم بفـرح عظيم وبـرهبة شديدة ، وعمت المدينة بهجة شاملة (٨٥) .

وعقدنا في تلك الساعة مجلسا حربيا للتشاور فيما بيننا عما علينا صنعه ، وعند ذلك انعقد اجماع قادتنا على المبادرة بانفاذ رسول الى التركمان – أعداء المسيح – ليسألهم – بوساطة أحد المترجمين – السؤال التالي :« ماالذي دعاهم الى دخول أرض المسيحيين وهم في حنق شديد ، وماالذي دفعهم لاقامة معسكرهم هناك ، وفتكهم بعبيد المسيح وقتلهم اياهم »، ولما انتهت أعمال المشاورة استدعوا بعض الرجال ومنهم بطرس الناسك وهرلوان وزودوهم بالتعليمات التالية قائلين لهم :« امضوا فابحثوا عن جيش التركمان الملعون ، وقصوا عليه هذا كله في دقة ، واسألوهم لماذا دعاهم غرورهم وبطشهم الى اقتحام ارض المسيحيين التي هي أرضنا نحن ايضا ».

ولدى سماع الرسل لمضمون رسائلهم انطلقوا لساعتهم ، وقدموا مقر قيادة الكفرة وأفضوا الى كربوقا ورجاله برسالتهم التى كان مضمونها :« لقد دهش قادتنا ومقدمونا أشد الدهشة كيف دفعكم التهور والطيش الى دخول ارض المسيحيين ، التي هي أرضهم ايضا ، هل لنا ان نفترض انكم قدمتم هاهنا بغير اعتناق المسيحية ، أم ترى ان الدافع للقدوم هو انزال شتى ضروب المساوىء بالنصارى وبمختلف الطرق ؟ ان قادتنا يطلبون منكم الارتداد عن أرض الرب والمسيحيين ، التي هداها بطرس الطوباوي بمواعظه من قبل ، وقادها الى الايمان بعقيدة المسيح ، وان قادتنا يسمحون لكم باصطحاب كل ما لديكم من الخيول والبغال والحمير والابل والماشية والثيران وكل ما تملكون ، ونقل كله معكم الى حيث شئتم ».

وغضب كربوقا – قائد جيش ملك فارس – غضبا شديدا ، وأخذته ومن معه العزة بالاثم فأجابوهم بغلظة :« إنا لانبالي بكم ولابربكم ونصرانيتكم ، ولانرتضيها وإياكم ، وسنسحقكم معها سحقا تاما في آن واحد ، والذي حملنا على القدوم الى هاهنا هو دهشتنا كيف يدعي المقدمون والقادة

الذين ذكرتموهم ملكية أرض نحن أخذناها من الأمم المدالة ، والآن هل تريدون سماع ردنا عليكم ؟ ارجعوا مسرعين الى مقدميكم وأخبروهم أنهم اذا كانوا يريدون ان تتركوا ، وتهجروا ، ربكم الذي تسجدون له ، وتنبذوا شرائعكم التي أنتم مقيمون عليها الآن ، فاننا نعطيهم هذه الأرض ، بل ماهو أكثر منها ، ونهبهم البلدان والحصون ، وآنذاك لن يبقى واحد منكم راجلا ، بل ستكونوا جميعا فرسانا مثلنا ، وستوثق بيننا وبينكم صداقة راسخة ، ومودة مكينة ، وان لم يقبلوا بهذا ويفعلونه فعليهم أن يعرفوا انهم سوف يلاقون حتفهم ، أو سنسوقهم مكبلين بالقيود الى خراسان حيث سيبقون في أسرنا الى مالا نهاية ، وسيكونون عبيدا لنا ولأبنائنا على مدى الأيام والعصور ».

وسرعان ماعاد الينا رجالنا وأخبرونا بكل ماسمعوه من هذه الطغمة الفظة المتوحشة ، ويذكر أن هرلوان الذي كان يعرف اللسانين (اللاتيني والتركي) كان يقوم بالترجمة لبطرس الناسك ، ونزلت في هذه الآونة بجيشنا نازلتان لم ندر كيف نتصرف حيالهما : الأولى المجاعة الرهيبة التي أعدمتنا قوانا ، والثانية الرعب الشديد الذي استبد بنا من التركمان .

٢٩- بعد أن أنتهى الجميع من صيامهم الذي دام ثلاثة أيام ، وفرغوا مما تلاه من الاحتفالات التي اقاموها في مختلف الكنائس ، وشرعوا بطقوس الاعتراف بخطاياهم ، وبعدما أنجزوا هذا كله تناولوا القربان المقدس الذي هو جسد المسيح ودمه ، ثم وزعوا الصدقات وأقاموا القداسات .

بعد هذا التأمت صفوف ست فرق من المقاتلين الذين كانوا داخل المدينة ، وكان في الفرقة الأولى التي تقدمت سواها : هيوج الكبير ومعه الفرنسيون و دوق فلاندرز ، و كان في الثانية غودفري و رجاله ، و في الثالثة روبرت النورمندي و معه فرسانه ، و قاد أسقف لي بوي الفرقة الرابعة وحمل معه حربة المخلص (٨٦) وكان معه

رجاله ورجال ريموند الصنجيلي الذي تخلف في المدينة امام الحصن خوفا من هجوم التركمان منه والحيلولة بينهم وبين النزول الى المدينة ، وكان تانكرد — بن المركيز — في الفرقة الخامسة ومعه رجاله ، وفي السادسة بوهموند العاقل ومعه فرسانه .

وماأن تدثرا ساقفتنا وقسسنا وكهنتنا ورهباننا بحللهم المقدسة حتى خرجوا برفقتنا حاملين الصلبان ، ممجدين الرب ومبتهلين اليه أن ينقذنا ويحمينا من كل سوء ، كما اعتلى بعضهم فوق الباب رافعين الصليب المقدس في أيديهم ورسموا فوقنا علامة الصليب وباركونا ، ولما اكتمل جهازنا تدرعنا بالصليب وخرجنا من الباب المقابل للمحمرة .

ولما رأى كربوقا ماكانت عليه فرق المسيحيين من النظام المدهش ، وهي خارجة واحدة اثر أخرى قال :« اتركوهم يخرجوا فلن يكونوا حينذاك خيرا مما لو كانوا في أيدينا » لكنه ماأن رأى جيوش الفرنجة الدثرة تغادر الأبواب حتى استولى عليه الخوف ، وسرعان ماأمر قائده الموكل بالحراسة العامة ان يأمر بالتراجع ، اذ شاهد النار تتأجج في طلائع الجيش ، وبهذا حاقت الهزيمة بالتركمان (٨٧) .

وشرع كربوقا — دونما توقف — في التراجع على مهل نحو الجبل ، ورجالنا في اثره بالخطى نفسها ، ثم انقسم التركمان الى قسمين ، اتجه أحدهما باتجاه البحر ، بينما توقف رجال الفريق الثاني في مواقفهم مؤملين في تطويقنا ، ولما شعر قادتنا بما يحيكه العدو لهم فعلوا مثل فعلته فسيروا فرقة سابعة فيها من رجال الدوق غودفري وكونت نورمندي ، وعهدوا بقيادتها الى ريناالد وبعثوا بها لاعتراض التركمان القادمين من ناحية البحر ، واشتبك التركمان برجالنا وقتلوا العديد منهم بنشابهم ، وفي الوقت نفسه جرى تشكيل فرق اخرى انتشرت من النهر حتى الجبل وغطت مساحة ميلين . وشرعت تلك الفرق في الزحف نحونا من الجهتين ، وأحدقت

برجالنا ، وأخذت تنضحهم بنشابها وترميهم بحرابها ، وشوهد في هذه الساعة عن بعد عساكر لايحصيها العد قادمة من جهة الجبل ممتطية خيولا بيضاء ورافعة رايات بيضاء ايضا ، ولما رأى رجالنا هذا الجيش لم يعرفوا هويته ولا لمن هو عائد ، لكنهم مالبثوا ان عرفوا أنه نجدة المسيح بقيادة القديسين جرجس ومرغوريوس وديمتري ، وينبغي تصديق هذه الرواية ، لأن العديد من رجالنا رأوا هذه الآية الباهرة .

ولما أدرك التركمان المتمركزون على مقربة من البحر أنه لم تعد لديهم المقدرة على مدافعة العدو ، أشعلوا النيران في الأعشاب هناك حتى يراها القاعدون في الخيم ، فيلوذوا بالفرار ، ولما رأوا هذه الاشارة حملوا معهم كل شيء له قيمة وانطلقوا فارين ، وتقدم رجالنا على مهل لمحاربة الفريق الأعظم من عساكرهم ، وتوجهوا نحو معسكرهم ، وسارع غودفري وهيوج الكبير وكونت فلاندر بالانطلاق نحو طرف النهر ، فصادفوا هناك العديد من جحافلهم فتسلحوا بشارة الصليب وانقضوا عليهم وهاجموهم هجمة رجل واحد ، ولما رأى بقية رجالنا ذلك طاردوهم هم بدورهم ايضا ، وتعالى صراخ التركمان والفرس ، أما نحن فقد سبحنا باسم الرب الحي الصادق ، وصدقناهم الحرب باسم يسوع المسيح والمذبح المقدس ، واشتبكنا معهم في القتال ، وانتصرنا عليهم بعون الرب .

واستبد الرعب بالتركمان فمضوا فارين ، ولاحقهم رجالنا وساروا في آثارهم حتى خيامهم ، وآثر فرساننا فرسان المسيح أن يتابعوا مطاردتهم ، ورأوا أن ذلك أنفع لهم من الانشغال بالاستيلاء على الغنائم ، واستمروا في تعقبهم حتى جسر العاصي فقطعه تانكرد ، وخلف الأعداء وراءهم خيمهم وذهبهم وفضتهم مع كثير من الأمتعة والماشية والثيران والماعز والبغال والابل والحمير والقمح والطحين والنبيذ ، وغير ذلك كثير مما كنا بحاجة اليه ، ولما وصل خبر نصرنا على التركمان الى مسامع الأرمن والسريان

القاطنين في تلك المنطقة طاروا نحو الجبل بغية سد الطريق في وجه التركمان ، وهكذا فتكوا بهم وقتلوا كل من تمكنوا من امساكه .

وعدنا الى المدينة في نشوة عظيمة ، وأخذنا نحمد الرب ونمجده على أن وهب جماعته النصر ، واستبد الرعب بشحنة القلعة حين شهد كربوقا وعساكره يفرون من ساحة القتال أمام جيوش الفرنجة ، وسرعان مابادر الى طلب الرايات الفرنجية فأمر كونت صنجيل – الذي كان مرابطا أمام القلعة – برفع رايته دون سواه ، فأخذها منه وسارع الى ركزها على البرج ، لكن لما شاهدها اللومبارديون الذين كانوا هناك قالوا :« هذه ليست راية بوهموند » ، فسألهم (أحمد بن مروان): فراية من اذا ؟ فأجابوه :« انها راية كونت صنجيل ، وعند ذلك تقدم (أحمد ابن مروان) واقتلع الراية ، وردها الى صاحبها وقدم في تلك الساعة بوهموند المبجل ، وناول رايته الى (القائد) التركماني ، الذي تلقفها بسرور ، وعقد اتفاقية مع الأمير بوهموند ، يأذن (بوهموند) بموجبها للكفرة الذين يرغبون في اعتناق المسيحية بالبقاء معه ، ويسمح لمن رغب عنها بالانصراف سالمين آمنين دون أن ينزل بهم ادنى ضرر أو أذى .

ووافق (بوهموند) على جميع مطالب الشحنة ، وسرعان مانزل سر جنديته في القلعة ، ولم تمض سوى أيام قلائل حتى جرى تعميد الشحنة المسلم وجميع الذين آثروا الايمان بالمسيح ، أما الذين فضلوا البقاء على دينهم أرسلهم الأمير بوهموند الى بلاد المسلمين .

وجرت هذه الواقعة في اليوم الرابع قبل مستهل تموز ، ليلة عيد الحواريين بطرس وبولص ، في حكم الرب يسوع المسيح ، الذي له الشرف والمجد السرمدي على مر الدهور . آمين .